محاضرات
مادة الاعجاز القرآني

اعداد
الاستاذ الدكتور
جبار عبد الوهاب الدليمي

المرحلة الرابعة
قسم علوم القرآن

كلية التربية للعلوم الانسانية

الصرفة

رافق القول بالصرفة القول بإعجاز القرآن، بل كان هذا القول الباعث الأول للبحث في وجوه إعجاز القرآن، ومن ثم نشوء علم البلاغة عامة.

مصدر القول بالصرفة:

عرف العرب في قرارة نفوسهم أن عجزهم عن أن يأتوا بمثل القرآن نابع من ذاتية القرآن. يتضح ذلك من أقوالهم المرويّة عنهم. وبقي الأمر كذلك إلىٰ صدر العصر العباسي، حيث أولع الناس بالفلسفة الدخيلة واطّلعوا علىٰ فلسفة الهند والفرس واليونان، وصارت الطبقة المثقفة من غير علماء الدين شعارها الإغراب في الأقوال والأفكار، لما وصلوا إليه من ترف عقلي. واطلع بعض المتفلسفين من علماء المسلمين علىٰ أقوال البراهمة في كتابهم «الفيدا»[1]، وهو الذي يشتمل علىٰ مجموعة من الأشعار ليس في كلام الناس ما يماثلها ـ في زعمهم ـ، ويقول جمهور علمائهم إن البشر يعجزون عن أن يأتوا بمثلها لأن براهما صرفهم عن أن يأتوا بمثلها، ولكن خاصتهم يقولون إن في مقدورهم أن يأتوا بمثلها ولكنهم ممنوعون من ذلك احتراماً لها.

وعندما دخلت الأفكار الهندية في عهد أبي جعفر المنصور ومن والاه

---

(١) الفيدا: يطلق علىٰ كتب الهندوس المقدسة الأربعة، وقد يطلق علىٰ كل واحد منها علىٰ انفراد، وكُتبت هذه الأسفار باللغة السنسكريتية ويعود تاريخها إلىٰ ما بين عام ٣٠٠٠ ـ ١٠٠٠ قبل الميلاد، ومعنىٰ كلمة (فيدا) بالسنسكريتية «المعرفة». انظر موسوعة المورد للبعلبكي ١٠/ ٨٢.

من حكام بني العباس، تلقف الذين يحبون كل وافد من الأفكار ويركنون إلىٰ الإغراب في أقوالهم فدفعتهم الفلسفة إلىٰ أن يعتنقوا ذلك القول ويطبقوه علىٰ القرآن ـ وإن كان لا ينطبق ـ فقال قائلهم: إن العرب إذ عجزوا عن أن يأتوا بمثل القرآن ما كان عجزهم لأمر ذاتي من ألفاظه ومعانيه ونسجه ونظمه، بل كان، لأن الله تعالىٰ صرفهم عن أن يأتوا بمثله.

إن رواج فكرة الصرفة يؤدّي إلىٰ أن القرآن الكريم ليس في درجة من الفصاحة والبلاغة تمنع محاكاته، وتعجز القُدَر البشرية علىٰ أن يأتوا بمثله. فالإعجاز عند القائلين بالصرفة ليس من صفات القرآن الذاتية، وبالتالي ما دام أن بلاغة القرآن لا تزيد علىٰ بلاغة سائر الناس فمؤدّىٰ كلامهم أن يكون القرآن من جنس كلام البشر.

القائلون بالصرفة:

١ـ النَّظَّام: أبو إسحاق إبراهيم بن سَيَّار بن هانىء النظام البصري:

اقترن اسم الصرفة باسم النظام، واشتهر أنه أول المنادين بها والمظهرين لهذا القول. كان النظام من الموالي، وهو ابن أخت أبي الهذيل العلاّف ـ أحد كبار المعتزلة ـ. وقيل له النظام، لأنه كان ينظم الخرز في سوق البصرة. تتلمذ للعلاف في الاعتزال ثم انفرد عنه وكوّن له مذهباً خاصاً، وعاشره في بغداد حيناً ومات وهو شاب في نحو السادسة والثلاثين من عمره سنة ٢٣١هـ. وكان أستاذ الجاحظ.

ترجم له الإمام أبو منصور البغداديّ في كتابه «الفَرْق بين الفِرَق» عند ذكره الفرقة النَّظَّامية فقال: (عاشر ـ أي النَّظَّام ـ في شبابه قوماً من الثنوية وقوماً من السُّمَنيّة القائلين بتكافؤ الأدلة، وخالط بعد كبره قوماً من ملاحدة الفلاسفة، ثم دوّن مذاهب الثنوية وبدع الفلاسفة وشبه الملاحدة في دين الإسلام، وأُعجب بقول البراهمة بإبطال النبوات، ولم يجسر علىٰ إظهار هذا القول خوفاً من السيف، فأنكر إعجاز القرآن في نظمه، وأنكر ما رُوي في معجزات نبينا ﷺ من انشقاق القمر وتسبيح الحصىٰ في يده، ونبع الماء

من بين أصابعه، ليتوصل بإنكار معجزات نبينا عليه السلام إلىٰ إنكار نبوته، ثم إنه استثقل أحكام شريعة الإسلام في فروعها، ولم يجسر علىٰ إظهار رفعها فأبطل الطرق الدالة عليها، فأنكر لأجل ذلك حجية الإجماع، وحجية القياس في الفروع الشرعية، وأنكر الحجة من الأخبار التي لا توجب العلم الضروري. ثم إنه علم إجماع الصحابة علىٰ الاجتهاد في الفروع الشرعية فذكرهم بما يقرؤها غداً في صحيفة مخازيه، وطعن في فتاوىٰ أعلام الصحابة رضي الله عنهم، وجميع فرق الأمة من فريقي الرأي والحديث)[1].

وتدل سيرة النظام علىٰ أنه كان علىٰ جانب كبير من الذكاء، يروي عن الجاحظ قوله: (كان الأوائل يقولون في كل ألف سنة رجل لا نظير له فإن كان ذلك صحيحاً فهو النظام)[2]. ولكنه لم يستعمل ذكاءه هذا في خدمة الشريعة والبحث فيها لإبراز أسرارها ولكشف حِكَمها ومكنوناتها، بل كان مسيئاً إليها مستخفاً بأوامر الدين غير متمسك بالأحكام شديد الجرأة علىٰ المحدثين، قليل الإيمان بصحة الحديث، ولا يرىٰ غضاضة في ردّ الحديث والطعن في راويه ولو كان صحابياً، لأنه لم يوافق عقله أو بالأحرىٰ هواه. ويقال إنه ألف كتاباً سماه «كتاب النكت» انتصر فيه لكون الإجماع ليس بحجة، فاضطره ذلك إلىٰ أن يذكر عيوب الصحابة ويوجّه إلىٰ كل واحد منهم طعناً.

يقول عنه ابن قتيبة[3]: (وجدنا النظام شاطراً من الشطار يغدو علىٰ سكر ويروح علىٰ سكر ويبيت علىٰ جرائرها ويدخل في الأدناس ويرتكب الفواحش والشائنات، وهو القائل:

ما زلت آخذ روح الزق في لطف ... وأستبيح دماً من غير مجروح

---

(١) «الفرق بين الفِرَق» للبغدادي، ص ١٣١ ـ ١٣٢. وقد ذكر البغدادي عشرين قضية من انحرافاته وسماها فضائح، ومن أراد الاطلاع علىٰ مزيد من فضائحه فليراجع «الفرق بين الفرق» من ص ١٣١ ـ ١٥٠.

(٢) «ضحىٰ الإسلام» لأحمد أمين، ٣/١١٨.

(٣) انظر كتابه «تأويل مختلف الحديث» ص ٢٥.

حتى انثنيت ولي روحان في جسدي والـزق مـطـرح جـسـم بـل ر

وفرقة النظامية التي تنسب إليه بالإضافة إلىٰ ما تقدم من مخالف
لجماعة المسلمين فقد تبنّوا آراء شاذة في العقائد منها: أن الله لا يقدر
يفعل بعباده في الدنيا ما لا صلاح فيه، ولا أن يزيد وينقص من عق
وثواب، وكونه مريداً لفعله كونه خالقاً ولفعل العبد كونه أمر به، والإن
هو الروح والبدن، والأعراض والأجسام لا تبقىٰ، والجسم مؤلف
الأعراض، والعلم والجهل المركب مثلان، والإيمان والكفر كذلك
والتواتر يحتمل الكذب، وأوجبوا النص علىٰ الإمام، وثبوته لعليّ لكن
كتمه[1]...

ولهذه الآراء الشاذة والمعتقدات الباطلة نص الكثير من العلماء
تكفير النظام وفرقته، حتىٰ من المعتزلة أنفسهم ومنهم أبو الهذيل - خ
وألف كتاباً في الرد عليه عرف باسم «الرد علىٰ النظام»، ومنهم الجُبّائي
النظام في مسائل ذكرها أبو منصور البغدادي، ومنهم الإسكافي وله ك
في الرد علىٰ النظام كفّره في أكثر مذاهبه.

أما أهل السنّة والجماعة فقد ضمن أكثرهم تكفير النظام مصنفا
ويقال إن للشيخ أبي الحسن الأشعري ثلاثة كتب في الرد علىٰ النظام
فيها. وللقلانسي في الرد عليه كتب ورسائل. وللقاضي أبي بكر الباق
كتاب كبير في بعض أصول النظّام، وقد أشار إلىٰ ضلالاته في كتاب
المتأولين).

٢ - وممن نُسب إليه القول بالصرفة: الشريف المرتضى من الشي

جاء في ترجمته عند الزركلي في «الأعلام»:

علي بن الحسين بن موسىٰ بن محمد، من أحفاد الحس

---

(١) انظر كتاب «لوامع الأنوار» لمحمد بن أحمد السَّفّاريني، ١/٧٨.

علي بن أبي طالب، نقيب الطالبيّين، أحد الأئمة في علم الكلام والأدب والشعر. يقول بالاعتزال. مولده ووفاته ببغداد. وله تصانيف كثيرة أشهرها: أمالي المرتضىٰ، وديوان شعره. قال الذهبي: وهو المتّهم بوضع نهج البلاغة، ومن طالعه جزم بأنه مكذوب علىٰ أمير المؤمنين. ت ٤٣٦.

ولكنه فسّر الصرفة بأن الله سلبهم العلوم التي يُحتاج إليها في معارضة القرآن والإتيان بمثله. ومؤدّىٰ كلامه أنهم أوتوا القدرة علىٰ المعارضة بما كانوا عليه من بيان وبلاغة وفصاحة فهم قادرون علىٰ النظم والعبارات، ولكنهم عاجزون عن الإتيان بمثل القرآن بسبب أنهم سُلبوا العلم الذي يستطيعون به محاكاة القرآن في معناه.

٣ ـ وممن قال بالصرفة: الفقيه الظاهري ابن حزم الأندلسي المتوفىٰ سنة ٤٥٦هـ.

جاء في كتاب «الأعلام» للزركلي في ترجمة ابن حزم:

عالم الأندلس في عصره. كان في الأندلس خلق كثير ينتسبون إلىٰ مذهبه يقال لهم الحزمية. ولد بقرطبة، وكانت له ولأبيه من قبله رياسة الوزراء وتدبير المملكة، فزهدها وانصرف إلىٰ العلم والتأليف... انتقد كثيراً من العلماء والفقهاء، فتمالأوا علىٰ بغضه وأجمعوا علىٰ تضليله وحذروا سلاطينهم من فتنته، ونهوا عوامهم عن الدنوّ منه فأقصته الملوك وطاردته، كان يقال لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان.

أشهر مصنفاته: «الفِصَل في الملل والأهواء والنِّحَل»، و «المحلىٰ» في الفقه الظاهري، و «جمهرة الأنساب»، و «الإحكام في أصول الأحكام». وغيرها من المؤلفات.

فقد قال في كتابه «الفصل» في سبب الإعجاز: لم يقل أحد إن كلام غير الله معجز، لكن لمّا قاله الله تعالىٰ، وجعله كلاماً له، أصاره معجزاً،

ومنع من مماثلته.. ثم قال: وهذا برهان كان لا يحتاج إلىٰ غيره[1].

يقول الشيخ محمد أبو زهرة تعليقاً علىٰ كلام ابن حزم هذا: (ولئن كان كل من النَّظّام والمرتضىٰ متهماً بنوع من التهمة في عقيدته، فالنظام قد اتُّهِم بالإلحاد والزندقة، والمرتضىٰ اتُّهم باطّلاعه علىٰ فلسفة المعتزلة وكلامهم، فإن ابن حزم لم يُتّهم بشيء من ذلك، وإنما يفسر قوله بالصرفة تمشياً مع مبدئه في عدم جواز تعليل كلام الله وشرعه، فقد ألزم نفسه بالأخذ بظاهر النصوص من غير تعليل، فالاتجاه إلىٰ تعليل الإعجاز الوارد في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾ وغيرها من الآيات بأن السبب فيه بلاغته التي علت عن طاقة العرب والتي جعلتهم يخرّون صاغرين بين يديه من غير مراء ولا جدال، يُعَدّ هذا تعليلاً، وهو من باب الرأي الذي ينفيه)[1].

٤ ـ وممن عُرف بالقول بالصرفة ابن سِنان الخفاجي المتوفىٰ سنة (٤٦٦) هـ. يقول في كتابه «سر الفصاحة»: وإذا عدنا إلىٰ التحقيق وجدنا وجه إعجاز القرآن صرف العرب عن معارضته، بأن سُلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكّنون من المعارضة في وقت مرامهم ذلك... ومتىٰ رجع الإنسان إلىٰ نفسه، وكان معه أدنىٰ معرفة بالتأليف المختار وجد في كلام العرب ما يضاهي القرآن في تأليفه)[2].

حقيقة القول بالصرفة:

قالوا: (لقد عرف العرب منذ جاهليتهم بفصاحة الكلم، فلهم القصيد الطويل والنثر البديع والرجز اللطيف والسجع الغريب، ولهم المعلقات، وقد كانت ندواتهم ومحافلهم تقام لمعرفة ما استجد من أفانين القول، فكيف يعجزون عن الإتيان بمثل أقصر سور القرآن بمثل سطر واحد لا تتجاوز كلماته العشرة، فإن ثبت عجزهم فليس ذاك إلا أن صارفاً صرفهم عن

---

(١) نقلاً عن كتاب «المعجزة الكبرىٰ» لمحمد أبي زهرة، ص ٨٠.

(٢) «سر الفصاحة» للخفاجي ص ٨٩.

الاتيان بمثل القرآن أو بمثل سورة منه بأن سلب منهم العلوم التي تمكنهم معارضة القرآن بواسطتها، أو صرفهم عن الاهتمام بالمعارضة، ولولا ذلك لأمكنهم الإتيان بمثل القرآن).

مما تقدم من أقوال القائلين بالصرفة نتعرف على مذهبين لهم:

١ ـ النظام ومن تبعه: ذهبوا إلىٰ أن العرب صُرفوا عن المعارضة أصلاً ولم يتوجّهوا إليها، ولو توجّهوا لقَدَروا علىٰ الاتيان بمثل القرآن.

٢ ـ والمذهب الثاني ـ وقال به الشريف المرتضىٰ وابن سنان الخفاجي ومن تابعهما ـ: ذهبوا إلىٰ أن الله سلب من العرب علومهم التي يُحتاج إليها في معارضة القرآن والاتيان بمثله، ولو توجّهوا لما استطاعوا أن يأتوا بمثل القرآن.

وكلا القولين مردود بأدلة نقلية وعقلية:

أما الأدلة النقلية:

١ ـ فقد أجمعت الأمة قبل ظهور القول بالصرفة علىٰ أن إعجاز القرآن ذاتي[1] لاشتماله علىٰ ميزات جعلته يفضل كلام البشر. والقول بالصرفة يسلب عن القرآن إعجازه الذاتي، ويجعل المعجزة لهذا الصرف والمنع الذي حال بينهم وبين الاتيان بمثله.

٢ ـ وصف الله سبحانه وتعالىٰ القرآن بأوصاف ذاتية تجعله في منزلة لا تصل إليها المعجزات الأخرىٰ، وبيّن أن وجود القرآن بينهم يتلىٰ عليهم كافياً ومغنياً عن كل معجزة مادية أخرىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: ٥٠ ـ ٥١].

---

(١) ذكر هذا القول القرطبي في تفسيره ١/٦٦، وانظر الإتقان للسيوطي ٢/١١٨، وغيرهما.

فهذه الأوصاف والمزايا توجب أن يكون إعجازه ذاتياً وقد قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]. أي لو كان من شأن كتاب أن يظهر له أثر في مثل هذه الأشياء لكان هذا القرآن أولىٰ من كل كتاب بذلك.

ويقول جلّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢٣].

فالقول بالصرفة يسلب هذه الصفات الذاتية عن القرآن الكريم ويجعل الإعجاز في المنع الذي حال بينهم وبين الإتيان بمثله.

وأما الأدلة العقلية:

١ ـ إن قول النظام ومن تبعه: إن الله صرفهم بصرف الدواعي عن الاهتمام بالمعارضة يكذبه الواقع التاريخي، كيف يقال إنهم لم يهتموا بأمر القرآن والتوجّه لمعارضته وهم الذين لم يدّخروا وسعاً في سبيل القضاء على القرآن والتخلص ممن أُنزل عليه.

ـ هل يقال إن دواعيهم كانت مصروفة عن المعارضة ولم يهتموا بشأن القرآن وهم الذين أوفدوا عُتبة بن ربيعة ليفاوض محمداً ﷺ علىٰ ترك سب آلهتهم وتسفيه أحلامهم وله مقابل ذلك الملك والمال والجاه والنساء وكل ما يرغب؟!.

ـ أيقال إن دواعيهم كانت مصروفة عن القرآن وهم الذين وجهوا أشرافهم إلىٰ عم النبي ﷺ أبي طالب لكي يسلمهم محمداً يقتلوه ويعطونه بدله أنهد فتىٰ في قريش، عمارة بن الوليد بن المغيرة؟!.

ـ كيف يقال إن دواعيهم لم تتوجّه إلىٰ معارضة القرآن وهم الذين لمّا يئسوا من المفاوضات قرروا إرسال فتىٰ من كل قبيلة لاغتيال محمد ﷺ في بيته لكي يتفرّق دمه في القبائل فلا يستطيع بنو هاشم حربهم